المُستَسْحِرة

من محطة سعد زغلول استقللتُ المترو المتجه إلى المرج.. جلست بجوار سيدة وقورة تعدَّتِ الستين عامًا بقليل. في المقعد المقابل لي جلست فتاة غير متعلمة في نهاية العقد الثاني من عمرها، حسنة النية، إلى حد أنها تفشى سر بيتها إلى من ترتاح له.

وبجوارها تجلس امرأة متعلمة، خمسينية حسنة المظهر، مُفوَّهة إلى حد بعيد، تبدو لمن يراها دون أن يسمعها أنها أجنبية؛ بسبب لون شعرها الأصفر، وعينيها الزرقاوين.

ونظرًا لضيق المكان؛ كنتُ مُجبرًا على سماع ما تقولانه، فبدأت العشرينية حديثها مع الخمسينية:

– شوفي يا ستي، بقى الحاجة أم جوزي مُصرة تنام معانا في غرفة نومنا، يعني أنا وجوزي على السرير، وهي وبنتي الصغيرة على الكنبة، على الرغم من أن شقتنا واسعة و«بِرْحَة» وفيها غرفة تانية غير غرفة نومنا، لكن تقولي إيه؟!

وتكمل العشرينية بسذاجة:

– وأنا بصراحة مش قادرة أتكلم معاها يا اختي. خايفة من غضب الراجل بتاعي، أحسن ده ابن أمه وبيخاف على زعلها موووووت.

في بداية حديثهما ظننت أنهما صديقتان، لكن بعد أن وجهت الخمسينية سؤالها للعشرينية عن عمر وطريقة زواجها، اكتشفت أن علاقتهما لا تتعدى الدقائق.

العشرينية تواصل حديثها بعد أن مصمصت شفتيها:

- إخواتي الرجالة – الله يسامحهم بقى - جوِّزوني لصاحبهم، اللي هو جوزي، وأنا كان عمري عشرين سنة، وهو كان عنده 30 سنة يا اختي، يعنى الفرق بيني وبينه 10 سنين، جاتني نيلة في حظى اللي زي الهباب، لكن اعمل إيه يعني؟ «ضل راجل يا اختي ولا ضل حيطة» زي ما بيقولوا، وعموما برضه كل شيء نصيب بقى.

تسألها الخمسينية:

- هي أمك عايشة حبيبتي؟ لا مؤاخذة في السؤال.

- بصراحة يا اختي، أمي ماتت من زمان، وما كنتش لاقية اللي ينصحني ويوعِّيني بمقالب الحريم وحركاتهم الغدارة، لكن على أي حال عاوزة اقول لك إن الحاجة أم جوزي دي متسلطة وسليطة اللسان، علشان كده الكل بيكرهها جدًّا، خصوصًا اخوات جوزها وجيرانها وقرايبها.. وبصراحة كده هم عندهم حق؛ لأن لسانها متبرِّي منها.

تصمت الفتاة المسكينة برهة لتلتقط أنفاسها، وبصوت خافت لا يسمعه إلا من يجلس على مقربة منها تقول لمحدثتها:

- لما اتجوزت اتعلقت بجوزي قوي، زي أي زوجة بتحب زوجها، لكن الحب دايمًا يا اختي محتاج لتضحيات، وأولها إني اكسب رضا حماتي.. أم جوزي رغم إن الكل كان بيحذَّرني منها.

وقبل أن تواصل المسكينة شكوتها من أم زوجها، قالت لها محدثتها المتعلمة:

- «الحماوات» دول يا اختي بعيد عنك عاوزين الحرق بالنار. ده كويس قوي انك صابرة عليها بحسب ما انت بتقولي، ومع ذلك عاوزة انصحك نصيحة لوجه الله.

- قولي يا اختي مستنية إيه الله يرضي عليك؟؟

- عاوزاك تزوريني في مكتبي بكرة الساعة 11 صباحًا أكون رُقت شوية من الشغل،

وبعدين أتصل لك بعم «عباس»، الساعي بتاعي علشان يُقعد معانا شوية، وتشرحي لـه حكايتك، وهو هيعمل لك «عمل» لحماتك يخلِّيها تحل عنك طول العمر.

الفتاة تسأل باستغراب:

- هو حضرتك بتشتغلي إيه يا ستي؟

- أنا وكيلة مدرسة الـ «.....»، وها هو كارتي حبيبتي فيه عنـواني ورقـم موبايلي، وهاستأذنك بقى؛ لأني نازلة محطة سرايا القبة.

ولأن حديث هذه المثقفة كان مستفزًّا بعض الشيء، فأبدت الستينية التي كانت تجلس بجواري اعتراضها بصوت مرتفع ووجه ممـتعض عـلى أسـلوب المثقفـة، وقالت بعد أن مصمصت شفتيها:

- صحيح «كذب المنجمون ولو صدفوا».

فما كان مني إلا أن نصحت الفتاة المسكينة بنسيان كل ما سمعته مـن محـدثتها الخمسينية عن السحر والشعوذة.. وأكدت لها أن مثل هـذه الأفكـار والصـداقات والسحر لا فائدة منهـا، بـل قـد تعجـل مـن خـراب البيـوت، وأن أفضـل عـلاج لمشكلتها هو الصبر على المكاره، ومعاملة حماتها كأنها والدتها بالضبط.

وفى أثناء حديثي مع الفتاة؛ رجوتهـا قبـل أن أنـزل محطتـي (عـين شـمس) ألا تُفشى أسرار بيتها لأحدٍ مهما كـان، فوعـدتني أن تعمـل بوصـيتي، وأنهـا ستنسـى مديرة المدرسة، ولن تذهب إليها، وستستمر في معاملتهـا الطيبـة لحماتهـا وكأنهـا والدتها وأكثر.. انتهى.